

غرائب التنبيهات على عجائب التنبيهات

لعلّ بن ظافر الأزدي المصري

تحقيق

دكتور

مصطفى الصّاوي الجويني

أستاذ الأدب المساعد

بجامعة عين شمس (سابقاً)

دكتور

محمد زغلول سلام

أستاذ كرسي اللغة العربية وآدابها

بجامعة الإسكندرية (سابقاً)

دخائر العرب



غرائب التنبيهات على عجائب التنبيهات

لعلّ بن ظافر الأزدي المصري

تحقيق

دكتور

مصطفى الصّباوي الجويني

أستاذ الأدب المساعد

بجامعة عين شمس (سابقاً)

دكتور

محمد زغلول سلام

أستاذ كرسي اللغة العربية وآدابها

بجامعة الإسكندرية (سابقاً)



دار المعارف

غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات

لعلّى بن ظافر الأزدى المصّرى

مقدمة التحقيق

مقدمة

المؤلف : على بن ظافر الأزدي المصري

المتوفى سنة ٦٢٣ هـ

ولد ابن ظافر في القرن السادس الهجري سنة سبع وستين وخمسمائة ، في عصر كانت القرى الإسلامية تنجمع فيه للملاقة الصليبيين ، وفي بيئة يسودها الحماس الديني وتشتعل بنار الرغبة في الجهاد . ويخيم عليها قتام الحرب والقتال . في هذا الجو ولد ابن ظافر وتلقفه والده ، فتعهد به بالتربية الدينية ، وذكرت مصادر حياته أنه قرأ على والده الأصول وتفقه على يديه . وكان والده يدرس بالمدرسة المالكية بمصر ^(١) ولم تكشف المصادر بعد ذلك عما إذا كان قد حفظ القرآن ، كله أو بعضه ، وحصل قدراً من الحديث لا بد منه ، إلى عناصر ثقافية أخرى يتطلبها التعليم الإسلامي في ذاك الأوان . وعلى أية حال فإن والد ابن ظافر كان يرسم لعلّ خطأ في الحياة ، وكان الفتي يرسم لنفسه خطأ آخر ، فقد كان متعلقاً منذ شببته بالدنيا ^(٢) ، متطلعاً لعتبة السلطان ، وأعد لخطه حياته عدتها فتقف الأدب وعلوم اللسان العربي ، شأن كتاب العصر وشعرائه الذين يرقى بهم أدبهم إلى مرتبة الوزارة ، وبرع في الأدب ، فوجد في أديب العصر وراعيه الأدبي ، والوزير الخطير آنذاك القاضي الفاضل ما يأمل من تشجيع ورعاية . ولندع قلمه يحكي طرفاً من الحديث عن بدء حياته مع الأدب يقول : « . . كنت في صدر عمري وبدء أمرى نشطت لجمع أخبار الشعراء في البدائع والارتجال ومحاسن أشعارهم في مضائق الإسراع والإعجال ، وسجعت حكايات لم يرقصها في الطرس بنان ، ولم يطمثها قبلي إنس ولا جان ، فأوقفت عليها صدر ذلك الزمان ، وسيد فضلاء ذلك الأوان السيد الأجل الفاضل أبا علي عبد الرحيم بن الحسن البيساني ، رحمه

(١) فوات الوفيات لابن شاكر ج ٢ ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٧ .

الله تعالى ، فحشنى على الازدياد منها ، والتطلب لها والبحث ، فاجتمع من ذلك جزء أحكمت ترتيبه ، وهديت تبويبه ، وسميته بدائع البدائ ، ورتبت الأخبار فى كل باب منه على ترتيب الأعصار ، فلما رأى ما اجتمع منه سر به واغتبط ، وأكرم نزلته فاغتبط ، وشرفنى على صغر سننى ونضارة غصنى بأن أنسخه لخزائنه وجباه بحفظه وصيانتة » .

ولتم لابن ظافر أدوات خطته فى الحياة عكف على كتب التاريخ يدرسها وعلى أخبار الملوك يحفظ منها جملة وافرة . وهكذا تجمعت له أسباب ثقافية من علوم إنسانية ولسانية ودراسات إسلامية أهله جميعا لشغل منصب الأستاذية . ويروى أنه درس بالمدرسة المالكية بمصر بعد أبيه ^(١) ، ويبدو أنه شغل هذا المنصب فى أخرىات حياته بعد أن تنقلت به الأسباب فى خدمة الملوك .

وربما كان أول اتصاله بالملك الأفضل على بن صلاح الدين فى مرج عكا ^(٢) ، ثم اتصل بعد ذلك بالسلطان صلاح الدين ، وتوسل إليه بمؤلف تاريخى أدبى هو كتاب « ذيل المناقب النووية » ^(٣) . وخلص بعد وفاة صلاح الدين لابنه الأفضل على (المتوفى سنة ٦٢٢ هـ) الذى تولى دمشق ، وكان قد لقيه فى مرج عكا ، وقدم له قصيدة أورثها فى صدر كتاب التشبيهات ثم أهدى له هذا الكتاب نفسه بعد سنوات حين تولى السلطنة ، وكان لا يزال حينئذ فى ميعة الشباب .

وترسل ابن ظافر بعدئذ إلى الديوان العزيز ^(٤) . ثم تنقل فى خدمة ملوك الدولة الأيوبية فاتصل بالملك العادل أبى بكر أنخى صلاح الدين ، وكبير الأيوبيين من بعده ، وذكر ذلك فقال : « كنت فى خدمة مولانا العادل خلّد الله ملكه بالإسكندرية سنة لإحدى وستائة مع من ضمت حاشية العسكر المنصور من الكتاب ، ودخلت سنة اثنتين ونحن مقيمون بالخدمة مرتضعون لأفوايق النعمة » ^(٥) . ثم اتصل

(١) فوات الوفيات لابن شاکر ج ٢ ص ١٠٦ / ١٠٧ .

(٢) ذكر هذا فى الإهداء الذى قدم به لكتاب التشبيهات .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٣ ص ٦٩ وهذا الكتاب خط بالأسكوريال .

(٤) يقصد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الذى تولى مصر بعد وفاة أبيه . راجع وفيات الأعيان

ج ٢ / ٤١٤ .

(٥) بدائع البدائ ص ١٧٧ - ١٧٨ .

بعد بالملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر ، وكان يتولى الإمارات الشرقية في حياة أبيه ثم تولى بعد ذلك الشام ، وكان اتصاله به سنة ثلاث وسبعمائة (٥٦٣هـ) (١) . ويكشف عن ذلك في مقدمته لبداية البدائع . وهنا نراه يتوسل بهذا الكتاب مرة ثانية ، وقد اكتمل ونضج هذه المرة للقربى من الأشرف وكان محباً للأدب بعد أن كان عرضه من قبل على القاضي الفاضل . يقول ابن ظافر في البدائع : « .. ولم يزل ذلك الجزء - يعنى بدائع البدائع المهدى للقاضي الفاضل - غنى منسى الذكر ، وعندى خامل القدر حتى مثلت بالجناب العالى الملكى الأشرفى ، أعز الله سلطانه في سنة ثلاث وسبعمائة ، وذلك قبل أن أتمسك بجبله ، وآوى إلى ظله ، فجرى في مجلسه ذكر ذلك الجزء فحسن من خاطره موقعه ، فرسم لى نقله . وقد كنت في زمن فترتي جمعت أخباراً كثيرة قارب حجم الجزء الأول مجموعها ، وفاق على كثير منه مسموعها ، فجمعت شمل الطارف والتليد ، والقديم بالجديد وأنفذت به ، وأوفدته عليه (٢) »

وهكذا نرى ابن الظافر بعد أن زاد في ابتكاره الأدبي مادة قدمه للأشرف ، وقدر له أن يظفر بالقربى منه ، ويتمكن من نفسه ، وينزل المنزل العالية . ويحكى لنا ذلك فيقول : « وكنت عند المولى الأشرف أبقاه الله تعالى في سنة ثلاث وسبعمائة بالرها ، وقد وردت إليه في رسالة ، فأنزلى بين سمعه وبصره في بعض دوره بالقلعة بحيث يقرب عليه حضوري في وقت طلبتي ، أو لإرادة الحديث معي . . . » (٣) ، ويزيدنا تأكيداً لهذه الحظوة في موضع آخر فيقول في بدائعه : « ومررت أيضاً عليه ، وقد أنفذنى السلطان - خلده الله تعالى ملكه في رسالة إلى الموصل في سنة سبع وسبعمائة فلما عدت أمسكنى عنده نحو شهر بالرها ، وجرت لى عنده بدائعه كثيرة » (٤)

وما تقدم من النصوص يتضح لنا أنه اتصل بالسلطان العادل أبي بكر بعد استيلائه على ملك أخيه ، وأنه صحبه ، فكان في عسكره بالإسكندرية سنة ٥٦١هـ وأنه سافر

(١) وفيات الأعيان ج ٤ / ٤١٣ .

(٢) بدائع البدائع ص ٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٨١ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٨٢ .

بينه وبين ابنه الأشرف موسى سنة ٦٠٣ ، سنة ٦٠٧ هـ إلى أن يستقر من سنة ٦٠٨ هـ في خدمة الأشرف موسى ، ويصرح في موضع من كتاب البدائع بأنه « كان مقيماً في أواخر سنة ثمان وستائة بنصبيين في خدمة الملك الأشرف لتدبير أحوالها وترجيح وجوه أموالها ^(١) »

وفي موضع آخر يقول : إنه كان برأس العين في خدمة الملك الأشرف ^(٢) .
ولن يتصل بالملوك أحوال ، فهم ساعة في سعد يلعب نجمهم ويزهر ، وساعة في صيب يخبو النجم فينطفئ ، والسلطان من لا يتصل بالسلطان كما قيل ، وهكذا كان ابن ظافر ، فبعد أن بلغ تلك المنزلة عند الأشرف وتولى له بعض المهام الرسمية والولايات ، انصرف عن خدمته ولكنه كان انصرفاً جميلاً كما يقول : « . . . وكان يصحبنى وأنا في خدمة الأشراف - أبقاه الله - رجل كاتب حسن الخط من أهل العلم والخير ، هاجر إلى دمشق ، يقال له جمال الدين على الدين ابن أبي طالب ، فلما رأيت ما عليه الأحوال من الاختلال ، وقويت في نفسي شهوة الانفصال ، كنت ليلي ونهارى مكياً على الدعاء بتسهيل ذلك وتعجيله ، وتيسير ما أرجوه منه ، وأقمت على هذا مدة طويلة ، بحيث كان الأمر مشهوراً عند كل أحد من الحاشية ، فأخبرني أنه بات مشغول القلب بما يسمعه مني في ذلك ، فرآني في جامع دمشق تحت النسر ، وإلى جانبه شيخ ، وكأنهم ينتظرون الصلاة ، وإذا برجل شاب قد أقبل من الباب الغربي فقال له الشيخ : يا أبا العباس أجز :

إن ابن ظافر سوف يظفر بالذى يرجوه عاجل

فقال :

ظفرت عداه بخيبة وغدا لما قد شاء نائل

فسررت بذلك فلم يكن شئ أسرع من عود الملك الأشرف أبقاه الله من دمشق ، وانفصالي من خدمته على الوجه الجميل . وكان ذلك - والله - أعظم ظفر ، وأرفق قدر . ولو لم يكن فيه إلا الرجوع إلى الباب الذى منه درجت ، وفي خدمته

(١) بدائع البدايه ١١٢ .

(٢) بدائع البدايه ص ٥٥ .

تخرجت ، والوطن الذي هو أول أرض مس ثراها جلدى وعلقت فيه تمانى ،
فالله تعالى يحقق الرجاء ويكمل الأمل بمنه وطوله » (١) .

وانطلق من خدمة الملوك إلى وطنه ناعم البال ، ليقضى ما بقي من عمره متحرراً
من قيد الخدمة السلطانية ومظاهرها وتكاليفها التي قد تبهر شاباً في مستقبل حياته
ببهرجها ولكنها تثقل كهلاً قارب عمره الستين ، ولكنه وإن أراد ذلك وأحبه لنفسه طلباً
للراحة والهدوء ، فإن الطمع غلاب ، والدنيا تغر . . . وهكذا بعد أن عاد على بن
ظافر إلى مصر وطنه لم يعتزل وظائف الدولة كما أراد عند فراقه للأشرف ، أو كما
ترأى له عندئذ ، وكاد في محنة الملل من ضيق ألم به ، بل عاد من جديد يتولى
وكالة بيت المال (٢) في عهد الملك الكامل بن العادل .

واعتزل ابن ظافر وكالة بيت المال ليفرغ للتدريس ، ويعيش ما بقي من أيام
حياته زاهداً متنسكاً ، يدرس الحديث وعلوم الدين في المدرسة المالكية ، حيث سبق
أبوه إلى التدريس بها وظل كذلك حتى توفي سنة ٦٢٣ هـ . يقول ابن شاعر في
كتابه : « . . . كان له ميل كبير إلى أهل الآخرة ، محباً لأهل الدين والصلاح ،
أقبل في آخر عمره على مطالعة الأحاديث النبوية وأدمن النظر فيها . روى عنه
القوصي وغيره » (٣) .

وهكذا بدأ على بن ظافر حياته أديباً ، وختمها رجل دين ، وملاً ما بينها
من سنين نشاطاً في الأدب والسياسة ، يكتب للسلطين ويقوم على خدمتهم
ومسامرتهم ، ويتولى لهم بعض الأعمال .

وفيا مرفى ثنايا ترجمته نجم العناصر الغالبة على ثقافته عناصر الأدب والتاريخ ،
وقد ترك تراثاً من الكتب في هذين الموضوعين ، نجملها فيما يلي :

ففي التاريخ :

١ - ذيل المناقب النورية ، وقدمه لصلاح الدين ، وتوجد منه نسخة خطية
بالأسكوريال (٤) .

(١) بدائع البداه ص ٥٦ . (٢) فوات الوفيات ٢ / ١٠٧ .

(٣) فوات الوفيات لابن شاعر ص ١٠٧ .

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ج ٣ ص ٦٥ .

- ٢ - الدول المنقطعة ، وهو كتاب مفيد جداً في بابه ^(١) ، ويصفه جورجى زيدان بأنه في أربعة مجلدات يشمل تاريخ الدولة الحمدانية ، والساجية ، والطولونية ، والأخشيدية والفاطمية ، والعباسية إلى سنة ٦٢٢ هـ . ومنه نسخة في غوطا ، وفي المتحف البريطاني ؛ ونشر الجزء الخاص بالدولة الساجية في بون سنة ١٨٢٣ م .
- ٣ - أخبار الملوك الساجوية .
- ٤ - أساس السياسة ^(٢) .
- وما يجمع بين التاريخ والأدب :
- ٥ - أخبار الشجعان .
- ٦ - كتاب من أصيب من اسمه على ، وابتدأ بعلى رضى الله عنه ^(٣) .
- ولم يصلنا هذا الكتاب .
- ٧ - نفائس الذخيرة ، ولم يكمل .
- ٨ - مكرمات الكتاب ^(٤) .
- ٩ - بدائع البدائع ، والذيل عليه ، وقد سلم البدائع ، أما الذيل فلم نعر عليه ؛ وقد نزع في البدائع منزعاً طريفاً إذ اتجه إلى جمع أخبار الشعراء مما يتصل بالقول على البديهة أو الإبداع والابتكار . وكان على بن ظافر نفسه ممن يقول الشعر على البديهة ، وإن كان شعراً يعتوره ما يعتور شعر أصحاب الطبع من الخلل والتسهل وعدم الإتقان .
- ١٠ - غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات ، وهو الذى نحن بصدد تحقيقه .
- ونستطيع أن نقول إن ابن ظافر قد أجرى على كتبه ، كما يفعل كثير غيره من المؤلفين القدامى والحديثين كثيراً من التعديل والتغيير ، فهذا الكتاب « التشبيهات » لا شك قد جرى عليه ماجرى على كتابه « البدائع » من إضافة لنصه الأصلى الذى ألفه في شبابه ، ولم يتركه على حاله التى قدمه بها للملك الأفضل على .

(١) فوات الوفيات لابن شاكر ج ١٠٧/٢ (٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر السابق ، ومعجم الأدباء ج ١٣ / ٢٦٦ - ٢٧٦ وقد ورد اسمه محرفاً وصحته ما ذكرناه .

(٤) معجم الأدباء لياقوت ج ١٣ / ٢٦٦ .

التشبيهات

التشبيه فن من فنون التعبير الشعري ، أولع به شعراء العرب منذ الجاهلية حتى العصور المتأخرة . وقال المبرد : « والتشبيه جار كثير في كلام العرب حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد » ^(١) . وجعله قدامة بن جعفر في كتاب « نقد الشعر » أحد أغراض الشعر الرئيسية كالمدح والنسيب والهجاء والمراثي والوصف ^(٢) ، وذكر ابن سينا أن العرب تميل للتشبيه لميلهم إلى وصف الأشخاص لا الأحوال . واهتم شعراء العرب المحدثون بالتشبيه ، وحاولوا أن يبدعوا فيه ، وقصد بعضهم إلى التشبيه لذاته كما فعل ابن المعتز وكثير ممن تبعه من أصحاب هذا الاتجاه من شعراء القرون المتأخرة .

واهتم علماء الأدب والشعر بهذا الفن التعبيري وتتبعوه في أشعار العرب ، ومن أول من فتح الباب في تلك الدراسة ، المبرد في كتاب الكامل إذ قال : « واعلم أن للتشبيه حداً ، فالأشياء تتشابه من وجوه وتباين من وجوه ، فإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع ، فإذا شبه الوجه بالشمس ، فإنما يراد الضياء والرواق ، ولا يراد العظم والإحراق ، قال الله عز وجل : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ ، والعرب تشبه النساء ببيض النعام ، تريد نقاءه ونعومته وبياض لونه » ^(٣) .

ويقول المبرد : « إن العرب طرقت التشبيه في أشياء معينة شبهوا بها غيرها وتداولوها فيما بينهم وتعارفوا عليها حتى صارت تقليداً ، وجرت مجرى الأصول في آدابهم قال : « والتشبيه كما ذكرنا من أكثر كلام الناس ، وقد وقع على ألسن الناس من التشبيه المستحسن عندهم عن أصل أخذه ، أن شبهوا عين المرأة والرجل بعين الظبي أو البقرة الوحشية ، والأنف بحد السيف ، والفم بالخاتم والشعر بالعنقيد ، والعنق

(١) الكامل للمبرد ج ٢ / ٤٢ .

(٢) نقد الشعر لقدامة بتحقيق كمال مصطفى وطبع الخانجي بمصر ص ٥١ .

(٣) الكامل ١٧ / ٢ طبع صبيح .

بإبريق فضة ، والساق بالجمار . فهذا كلام جار على الألسن» (١)

فالمبرد يرى رأى نقاد العرب القدماء الذين يهتمون بالتشبيه كأداة للبيان تبرز الصفة الغالبة في المشبه أو المراد تغليبها عن طريق محاكاته : أوتشبيهه ومقارنته بشيء آخر تغلب عليه الصفة المذكورة ، وعرف بها في أوهام الناس وبهذا يكون دور التشبيه التعبيري هو نقل الصفة أو الصورة من الأكثر إلى الأقل . أو كما قال ابن رشيق : « وسبيل التشبيه — إذ كانت فائدته إنما هي تقريب المشبه من فهم السامع وإيضاحه له — أن تشبه الأدون بالأعلى إذا أردت مدحه وتشبه الأعلى بالأدون إذا أردت ذمه » (٢) .

وفيما يقوله ابن رشيق وجهة نظر ، لأنه يحتمل في العلوية والدونية هنا الدرجة ، التي عليها الصفة أو المشابهة ، ويحتمل تواجدتها على تلك الدرجة عرفاً لا حقيقة ، كتشبيه الحدود بالورد مثلاً ؛ فقد درج الناس على تشبيه الحدود بالورد لأن الحمرة في الورد غالبة في الدرجة ، وقد يلجأ الشعراء إلى الإيهام بعكس ذلك لتعارف الناس على حمرة الحدود ، فتثبت في الأذهان لها تلك الصفة فيشبه الورد بها بدلا من تشبيهها هي به .

ومن هنا فلا دونية هناك ولا علوية ، ولا ذمّ إذاً في تشبيه الورد بالحدود ، بل تمليح وتجديد . وربما يرجع قول ابن رشيق هنا إلى قول ابن سينا كما نقله حازم القرطاجني في مناهج البلغاء وهو : « وكل محاكاة فيما أن يقصد بها التحسين ، وإما أن يقصد بها التقييح ، فإن الشيء إنما يحاكي ليحسن أو يقبح » (٣) . وهذا مرده ببلوره إلى كلام أرسطو في كتاب الشعر حيث تحدث عن المحاكاة في الفن .

ويختلف قدامة عن المبرد وابن رشيق في النظر إلى دور التشبيه في الشعر إذ يرى أن التشبيه الجيد هو الذي تتفق فيه صفات أكثر بين المشبه والمشبه به حتى يصل الأمر بينهما إلى المطابقة يقول : « إنه من الأمور المعلوم أن الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات ، إذ كان الشئان إذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما

(١) المصدر نفسه ٢ / ٦٦ .

(٢) العدة بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ١ / ٤٠ .

(٣) فن الشعر لعبد الرحمن بدوي ص ١٧٠ .

تغاير ألبة اتحادا فصار الاثنان واحداً ، فبقى أن يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ، ويوصفان بها وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتها ، وإذا كان الأمر كذلك فأحسن التشبيه هو ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفردهما فيها حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد» (١).

وعلق ابن رشيق على قول قدامة مخالفا في الرأي فقال : « وزعم قدامة أن أفضل التشبيه ما وقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما ، حتى يلنى بهما إلى حال من الاتحاد ، وأنشد في ذلك - وهو عنده أفضل التشبيه كافة - :
له أبطالا ظي وساقا نعامه وإرخاء سرحان وتقريب تنفل

وهذا تشبيه أعضاء بأعضاء هي هي بعينها ، وأفعال بأفعال هي هي بعينها ؛ إلا أنها من حيوان مختلف كما قدمت ، والأمر كما قال في قرب التشبيه ، إلا أن فضل الشاعر فيه غير كبير حينئذ لأنه كتشبيه نفس الشيء المشبه الذي ذكره الرماني في تشبيه الحقيقة ، وإنما حسن التشبيه أن يقرب بين البعيدين حتى يصير بينهما مناسبة واشتراك ، كما قال الأشجعي :

كأن أزيز الكير إرزام شجنها إذا امتاحها في محلب الحى ماتح
فشبه صرع العنز بالكير ، وصوت الحلب بأزيزه ، فقرب بين الأشياء البعيدة
بتشبيهه حتى تناسبت « (٢)

وكلام قدامة، عن دور التشبيه، كلام منطقي لا كلام فنان شاعر، ذلك أنه يرى المطابقة في الصفات أو في الحكاية، وأتم ما تكون تلك المطابقة بين الشيء ونفسه أو بين الشيء والشيء من جنسه، كالتشابه بين اليد واليد والرجل والرجل. وليس دور التشبيه كما يراه قدامة مجرد تشابه شكلي أو معنوي، إنما فيه جوانب أخرى تتعلق بالفن في روحه ومعناه ودوره في مخاطبة المشاعر والأحاسيس، ومخاطبة الذهن والفكر.

(١) نقد الشعر ١٠٨ .

(٢) العدد ١ / ٤٠ .

وتحدث الرماني^(١) عن المطابقة التامة في التشبيه فسماه التشبيه الحقيقي كما ذكر ابن رشيق ، وسمى ما تشابه في صفة أو صفتين بالتشبيه المجازي أى الذى يوقعه الشاعر ويأتى به من النيق البعيد ، كما يقول عبد القاهر الجرجاني ، ومن حيث لا يتوقع السامع أو القارئ فيهبش له ويضطرب لأنه يوقعه على شئ لم يقع عليه وينبئه إلى ما لم يطرأ على ذهنه تنبه إليه .

وينظر ابن طباطبا إلى التشبيه من زاوية أخرى فيقول مثل صاحبه : « فأحسن التشبيهات ما إذا عكس لم ينتقض ، بل يكون كل ما يشبه بصاحبه ، ويكون صاحبه مثله مشتبهاً به صورة ومعنى ، وربما أشبه الشئ الشئ صورة وخالفه معنى ، وربما أشبهه معنى وخالفه صورة ، وربما قاربه ، وداناه ، أو شامه ، وأشبهه مجازاً للاحقيقة »^(٢) .

ويقول : « والتشبيهات على ضرب مختلف ، منها تشبيه الشئ بالشئ صورة وهيئة ، ومنها تشبيهه به حركة وبطأ وسرعة ، ومنها تشبيهه به لونا ، ومنها تشبيهه به صوتا ، وربما امتزجت هذه المعاني بعضها ببعض ، فإذا اتفق في الشئ المشبه بالشئ معنيان أو ثلاثة معان من هذه الأوصاف قوى التشبيه وتأكد الصديق فيه وحسن الشعر به للشواهد الكثيرة المؤيدة له »^(٣) .

ورأى ابن طباطبا هذا ، وإن رجع في كليته إلى قول قدامة ، إلا أنه يقول بالتشبيه العكسي أى صحة انعكاس طرفي التشبيه دون إشارة إلى اللونية والعلوية ، ومن ثم إلى المديح أو الهجاء اللذين تصورهما مجرد علاقة في طرفي التشبيه قدامة بن جعفر ، فيكون المديح تصاعد العلاقة من الأدنى إلى الأعلى ، والهجاء العكس . وربما صح ذلك بمقياس المنطق ، ولكنه لا يصح دائماً بمقياس النوق وفي صنعة الشعر حيث يلعب الشاعر بالتشبيه على أوتار الحس ، فيوهم بقيام علاقات لا وجود لها ويضخم الصغير ويصغر الكبير . ويشبه الشئ بالشئ من جنسه ومن غيره .

(١) راجع ما ذكره عن التشبيه في « النكت في إعجاز القرآن » طبع دار المعارف سنة ١٩٦٨ الطبعة الثانية ، ضمن مجموعة ثلاث رسائل في إعجاز القرآن .

(٢) عيار الشعر بتحقيق الدكتور طه الحاجري والدكتور محمد زغلول سلام ، وطبع التجارية بمصر

ص ١١ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٧ .

كذلك الح ابن طباطبا على تفاصيل وجوه الشبه مما يتصل بحاسة النظر ، أو حاسة السمع ، وفتح الباب أمام غيره لتفصيل الحديث عن وجوه الشبه الأخرى المتصلة ببقية الحواس كاللمس والشم والذوق التي يحيل إليها الشاعر في التشبيه ليصل إلى إدراك المعنى الذي يريد التعبير عنه بطريق إشباع الحاسة التي يراها أقوى أثراً فيه .

والأصل في فن التشبيه أنه تعبير فني ، وأنه ضرب من المحاكاة في صور الشاعر للطبيعة عن طريق البحث لما يريد التعبير عنه من المعاني عن معادل أو موازن حسي من الطبيعة أو البيئة المدركة بالحس .

ولما كانت القدرة الشعرية متفاوتة بين مدارك الحس ومدارك العقل ، تبعاً لتفاوت الشعراء في ثقافتهم وبيئاتهم ، وحيواتهم ؛ كذلك تفاوتت التشبيهات ، والصور الشعرية عامة بين مدركات الحس ومدركات العقل ، أو بمعنى أوضح تفاوتت في الاعتماد على الحس والتصوير الحسي ، القريب من ناحية أو الاعتماد على التجريد العقلي من ناحية أخرى .

ونلاحظ بصفة عامة أن الأمم في حياتها البادية ، وفي طورها الأول تعتمد في لغتها وبيئاتها على الحس أكثر من الاعتماد على التجريد العقلي ، حتى اللغات نفسها نجد أنها تتدرج من غلبة الألفاظ الحسية المدلول في الأطوار الأولى للأمم إلى غلبة الألفاظ ذات المدلول المعنوي أو العقلي في أطوارها الراقية .

وقد غلبت الحسية على الشعر العربي في الجاهلية ، ونضرب مثلاً قول أوس بن حجر حين أراد التعبير عن انخفاض السحاب فقال :

دانٍ مُسِفٌ فُوَيْتَى الْأَرْضِ هَيْدَبُهُ يكاد يدفعه من قام بالراح

والشعر الجاهلي بعد ذلك ملئ بالصور الحسية لحياة البادية وحيوانها ، وقد استغرق بعضهم وصف الناقة وصفا حسياً بصورة لا نعهد لها في غير الشعر العربي^(١) وقال ابن طباطبا : « واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات

(١) راجع لايال في مقدمته للمفضليات

والحكم ما أحاطت به معرفتها ، وأدركه عيانها ومرت به تجاربها ، وهم أهل وبر؛
صحونهم البوادي وسقوفهم السماء ، فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها وفيها
وفي كل واحدة منها في فصول الزمان على اختلافها من شتاء وربيع ، وصيف
وخريف ، من ماء وهواء ونار وجبل ونبات وحيوان ، وجماد ، وناطق وصامت
ومتحرك وساكن ، وكل متولد من وقت نشوئه ، وفي حال نموه إلى حال انتهائه ،
فتضمنت أشعارها من التشبيه ما أدركه عيانها وحسها ^(١) »

وقد تحول الاهتمام بالتشبيه من الرغبة في التعبير بما يقع في دائرة الحس من
الأشياء إلى الرغبة في التشبيه للتشبيه في عصور الحضارة والازدهار ، للاستمتاع
بالصورة التي يبدعها الشاعر ، وللإغراب في تقصى وجوه الشبه ، والإبداع في خلق
العلاقات . وقد بدأ الاهتمام بالتشبيه لهذا الغرض في الشعر العربي منذ القرن الثالث
وطوال القرون التالية ، وربما كان ابن المعتز الشاعر البارز في هذا المجال ، وهو
الذي اختط لغيره طريق التشبيه للاستمتاع .

وقد لاحظ ابن سينا كما أشرنا من قبل لطفة الشعراء في عصره على الصور
الشعرية من تشبيه أو استعارة وخاصة تشبيه الذوات في صور « استاتيكية »
ثابتة . يقال :

« والشعر اليوناني إنما يقصد فيه ، في أكثر الأمر ، إلى محاكاة الأفعال والأحوال
لا غير ، وإنما الذوات فلم يركزوا يشتغلون بمحاكاتها أصلاً كاشتغال العرب ،
فإن العرب كانت تقول الشعر لوجهين أحدهما ليؤثر في النفس أمراً من الأمور
تعديه نحو فعل أو انفعال ، والثاني للعجب فقط ، فكانت تشبه كل شيء
لتعجب بحسن التشبيه » ^(٢) .

وتطور التشبيه من الاستمتاع الحسي إلى الاستمتاع العقلي ، وإذا كان رائد
الاتجاه الأول ابن المعتز ، فإن رائد الاتجاه الثاني أبو تمام ، ودعا له أنصاره من
العلماء والنقاد ووضع أصوله وفلسفته الفنية عبد القاهر الجرجاني . وأصبح التشبيه
عند هؤلاء لعبة عقلية تلذ العقل .

(١) عيار الشعر ص ١٠ .

(٢) فن الشعر لعبد الرحمن بدوي ١٧١ .

وإذا ما عدلنا عن الحديث في التشبيه وغاياته إلى حديث آخر فيما نستطيع أن نفيد به منه ، فإننا نرى أن في التشبيهات الشعرية مادة غزيرة للكشف عن جوانب الحياة ، والطباع ومظاهر السلوك ، والنشاط الإنساني في أطوار البداوة والحضارة فضلاً عن الصور والمشاهد الغنية الدقيقة للطبيعة التي قد لا نستطيع أن نلمسها أو نمر بها فتعطينا تجربة مفيدة كتلك الصورة التي رسمها الشاعر للحرباء في قيظ الصحراء إذ يقول :

يضحي بها الحرباء وهو كأنه خصم معد للخصومة موفق

ونعرف من عاداتهم وعقائدهم أنهم كانوا يعلقون حلئ النساء على الملدوغ ليشقى من اللدغ ، ونعلم أن من كان يحترف الكتابة بينهم جماعة اليهود لكثرة ما يشبهون من خطهم وكتابتهم كقول أبي حية النمرى :

كما خط الكتاب بكف يوماً يهودى يقارب أو يزيل

وتحس بتفاصيل حياة الرعاة في تشبيهاتهم المأخوذة من تلك الحياة كقول أ. النجم العجلى ويشبه الكمي ببيعير دهن بالقطران ليشقى من الحرب :

صدى القباء من الحديد كأنه جمل تعمده عظيم هناء

وتعرف من عادات الرعيان أن يوقدوا النيران في رعوس المرتفعات ليهتدى بها السائرون ليلاً ، ويصور لك امرؤ القيس صوراً جميلة ، وتعرف من منازلهم ومرابعهم وكيفية إقامة الخيام من دق الأوتاد وشد الأطناب ، وإقامة العمد؛ مما تردد كثيراً في أشعارهم من تشبيهات مأخوذة من هذه الأشياء .

وتعلم أنهم يتابعون مساقط المياه وأنهم يتلهون بالغيث ، فيشتقون من صوره ومعانيه كثيراً من التشبيهات التي تفلك على مدى تقديسهم للمطر وكل ما يتصل به من برق وسحاب . وقال جرير :

ما استوصف الناس من شيء يروقهم إلا رأوا أم نوح فوق ما وصفوا
كأنها مزنة غراء رائحة أو درة لا يوارى لونها الصدف

وقال الأعشى وشبه امرأة تمشي الهوينى بالسحابة :

كأن مشيتها من بيت جارنا مر السحابة لا ريث ولا عجل

ونعلم من تشبيهاتهم بالرياح والنسائم أنهم كانوا يحبون ريح الشمال فهي ريح طيبة لأنها تأتي بالغيث ، وهي معطرة بريح الخزامى مبللة ندية ، وأنهم يكرهون ريح الجنوب ، وهي ريح الصيف ، وهي العقيم التي لا مطر فيها ولا ماء ، وهي الدبور.. وفيها كل مكروه مرذول .

ونعلم من تشبيهاتهم عاداتهم في العبادة والتقرب إلى الأصنام بذبح الذبائح عليها وإراقة الدماء حتى تسيل على جانبيها كما قال النابغة :

تخدى بهم أدم كأن رحالها علق أريق على متون صوار

ونستشف كذلك من التشبيهات بينات الشعراء ، وما لا قوه في تلك البينات من الأشياء، فعلق بمحيلاتهم ؛ فأكثروا من التشبيه بها كعدي بن زيد في بيئة الحيرة المسيحية حيث تكثر البيع والأديرة المسيحية ، فهو يصف صور العذراء في المحاريب ، ويشبه بها كقوله :

كدي العاج في المحاريب وكالبيـض ض في الروض زهره مستنير

وكذلك فعل شعراء العرب الملاصقون للحيرة ، أو الذين أكثروا من الرحلة في تلك المناطق التي تكثر بها الكنائس والبيع نجد في أشعارهم تشبيهات عديدة بدى المحاريب ، وبالرهبان وشموعهم .

وهكذا نستطيع أن نقف على أسرار كثيرة في حياة العرب ومظاهر نشاطهم وعقائدهم من تتبع تشبيهاتهم في الشعر القديم .

وما نستطيع أن نستخلصه من شعر العرب في الجاهلية نستطيعه كذلك في شعر المحدثين فنقف على أسرار حضارتهم الزاهرة في أقاليمهم المتعددة من بلاد فارس شرقاً إلى الأندلس والمغرب غرباً . وقد تعقدت الحياة العربية ودخلتها عناصر كثيرة من حضارات مختلفة في كل جوانبها في التقاليد والعادات ، في الأذواق في الطعام والشراب واللبس والسكن ، في السلوك والأخلاق والطباع . ونستطيع أن نقف على كثير من هذا كله بتفصيلاته من التشبيهات ويجمع الكتاب الذي نحن بصددته نماذج كثيرة .

ونضرب مثالا لما يمكن أن يكشف عنه التشبيه من بيئة الشاعر بما رواه ابن

رشيقي عن ابن الرومي قال : « يحكي عن ابن الرومي أن لائماً لأمه ؛ فقال :
لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ قال : أنشدني شيئاً من قوله الذي
استعجزني في مثله ، فأنشده في صفة الهلال :

فانظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال زدني ، فأنشده :

كأن آذريونها والشمس فيه كالبيه
مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه

فصاح : واغوثاه ، بالله لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذلك إنما يصف
ماعون بيته لأنه ابن الخلفاء ، وأنا أي شيء أصف ؟ ، ولكن انظروا إذا وصفت
ما أعرف أين يقع الناس كلهم مني . هل قال أحد قط أملح من قولي في قوس
الغمام :

وقد نشرت أيدى السحاب مطارفاً على الأرض دُكنا وهي خضر على الأرض
يطرزها قوس الغمام بأصفر على أحمر في أخضر وسط مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقولي من قصيدة في صفة الرقاقة :

ما أنس لا أنس خبازاً مرت به يدحو الرقاقة مثل الملح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء يلقي فيه بالحجر

قال ابن رشيقي : وهذا كلام إن صح عن ابن الرومي فلا أظن ذلك أمراً لزمه
فيه الدرك ؛ لأن جميع ما رآه ابن المعتز قد وجده في ديارهم ، كما ذكر أن ذلك
علة الإجابة وعذر ، فقد رآه ابن الرومي هنالك أيضاً ، اللهم إلا أن يريد أن
ابن المعتز ملك قد شغل نفسه بالتشبيه فهو ينظر في ماعون بيته وأثاثه فيشبه به
ما أراد ، وأنا مشغول بالتصرف في الشعر طالبا الرزق أمدح هذا مرة ، وأهجو هذا
كرة ، وأعاتب هذا تارة ، وأستعطف هذا طوراً ،^(١) .

(١) العملة لابن رشيقي ج ١

ومثال لما يكشفه التشبيه من عادات الناس قول ابن حمديس الأندلسي في تشبيه الكتوس وقد ملئت حمرا وصفت بفتيات حسان يلبسن ثيابا حمرا في عرس؛ يقول :

وكأنما صور القناني إذا ملئت إلى لهواتها حمرا
بيض الحسان وقفن في عرس لما لبسن غلائلا حمرا

فنعلم أن الأندلسيين كانوا يميلون إلى أن تلبس الفتيات ثيابا حمراء في الأعراس ، على خلاف العادة عندنا الآن من لبس البياض ، ونعلم كذلك من من أخبار الأندلسيين أن البياض عندهم كان لباس الحداد .

ونعلم أن نقط العروس بدنانير الذهب عادة عربية من قول الخالدي :
حمراء حين جلتهما الكأس نقطها مزاجها بدنانير من الذهب

ونقرأ تشبيه ابن رشيق للمشمش : فنعرف أن ملوك القيروان في عصره كانت تنصب لهم خيام خضر تحف بها جلاجل . يقول :

كأنما المشمش لما بدت أشجاره وهو بها يلهب
خضر قباب الملك حفت بها جلاجل مصقولة من ذهب

ونعلم من تشبيهات للطغرائي ، ولعلي بن ظافر؛ أن القوم كانوا يصنعون ،
تأنقا قطعاً من المسك في كتوس الشراب . قال الطغرائي :

وترى شقائقه خلال رياضها أوفت مطاردها على أزهارها
وكأنها والريح تصقل خدها والسحب تملؤها بصفوقطارها
أقداح ياقوت لطاف أترعت راحاً وبات المسك حشوقرارها

وقال ابن ظافر :

أنظر إلى حسن شقيق الربا تنظر إلى ما ينجل الزهرا
من كل حمراء بها نقطة سوداء طابت بيننا نشرا
كمثل خد فوقه شامة مسودة قد أنبت شعرا
أو قطعة المسك إذا ألقيت في وسط كأس ملئت حمرا

ومما يدل عليه التشبيه تطور الذوق العربى بتطور الحياة وأخذ الناس بأسباب الحضارة والمدنية ، فترق مشاعرهم ، وتصفو أحاسيسهم ، وتهذب تصرفاتهم ، وتتغير نظراتهم للجمال والحسن فى الطبيعة وفى المرأة . قال ابن رشيق : « وقد أتت القدماء بتشبيهات رغب المولودون إلا القليل عن مثلها استبشاعاً لها ، وإن كانت بدیعة فى ذاتها ، مثل قول امرئ القيس :

وتعطو برخص غير شئن كأنه أساريع ظبى أو مساويك أسحل

فالبنانة لا محالة شبيهة بالأسروعة ، وهى دودة تكون فى الزمل ، وتسمى جماعتها بنات النقا ، وإياها عنى ذو الرمة بقوله :

خرايب أمثال كأن بنانها بنات النقام تخفى مراراً وتظهر

فهى كأحسن البنان ليناً وبياضاً ، وطولاً ، واستواءً ، ودقة وحمرة رأس ، كأنه ظفر قد أصابه حناء وربما كان رأسها أسود ، إلا أن نفس الحضرى المولد إذا سمعت قول أبى نواس فى صفة الكأس :

تعاطيكها كف كأن بنانها إذا اعترضتها العين صف مدارى

أو قول على بن العباس الروى :

سقى الله قصرأ بالرصافة شاقنى بأعلاه قصرى الدلال رصافى
أشار بقضبان من الدُرِّ قمعت يواقيت حمراً فاستباح عفافى

أو قول ابن المعتز :

أشرن على خوف بأغصان فضة مقومة أثمارهن عقيق

كان ذلك أحب إليها من تشبيه البنان بالدود فى بيت امرئ القيس ، وإن كان تشبيهه أشد إصابة . وقال ابن رشيق : « وكذلك صفتهم الخمر فى حبابها بسلخ الشُّجاع وما جرى هذا المجرى من التشبيه فإنه وإن كان مصيباً لعين الشبه ، فإنه غير طيب فى النفس ، ولا مستقر على القلب ، ومن ذلك قول أبى عون الكاتب :

تلاعبها كف المزاج محبة لها وليجرى ذات بينهما الأنس
فتزيد من تيه عليها كأنها غريرة خدر قد تخطها مس

فلو أن في هذا كل بديع لكان مقيتاً بشعاً ، ومن ذا يطيب له أن يشرب شيئاً يشبه بزبد المصروع وقد تخبطه الشيطان من المس ؟

وكأنى أرى بعض من لا يُحسِنُ إلاّ الاعتراض بلا حجة قد نعى على هذا المذهب ، وقال : رد على امرئ القيس ، ولم أفعل ، ولكنى بينت أن طريق العرب القدماء في كثير من الشعر قد خولفت إلى ما هو أليق بالوقت وأشكل بأهله . وقد عاب الأصمعي بين يدي الرشيد قول النابغة :

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود

على أنه تشبيه لا يلحق ، ولا يشق غبار صاحبه ، ولم يجد فيه المطعن إلا بذكر السقيم ، فإنه رغب عن تشبيه المحبوبة به ، وفضل عليه قول عدى بن الرقاع العاملي :

وكانها وسط النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت في عَيْنِهِ سَنَةٌ وليس بنائم

ومثله قول أبي محجن الثقفي في وصف قينة :
ترفع الصوت أحياناً وتخفضه كما يطنّ ذباب الروضة الغرد

فأى قينة تحب أن تشبه بالذباب ؟ ^(١)

وبتغير الأذواق في التشبيه نرى أكثر من ألف في هذا الموضوع يميلون إلى تشبيهات معاصريهم أو من سبقهم بقليل ، وهكذا فعل صاحب هذا الكتاب ، لم يورد تشبيهات لقداى الشعراء ، من الجاهلين أو المخضرمين أو من شعراء بني أمية ، بل وتغاضى عن كثير من شعراء العصور العباسية الأولى .

الكتب المؤلفة في التشبيهات

لم يكن كتاب « غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات » أول كتاب ألف في هذا الموضوع ، بل سبقته كتب أخرى سنعرض منها كتابين تم نشرهما ، هما : كتاب « التشبيهات » لابن أبي عون الكاتب (المتوفى سنة ٣٢٢ هـ)^(١) وهو بغدادى ، وكتاب « التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » للشيخ أبي عبد الله محمد بن الكتانى^(٢) .

وقد قسم مؤلف الكتاب الأول كتابه إلى اثنين وعشرين باباً رئيسية إلى جانب أبواب ثانوية يلحقها بها يبدؤها بقوله : « وما يتصل بذلك » . ويبدأ القول بالتشبيهات في القرآن الكريم لأنه « كان أكمل شاهد وأصح حجة » ، وجمع مجموعة من تشبيهات العرب القدماء والمحدثين وبلغ مجموعهم ستة وسبعين وأربعمائة شاعر ، من بينهم ما يقرب من خمسين شاعراً من الجاهلية وعصر الإسلام ، وأربعون من الأمويين والباقيون من الشعراء المحدثين في العصر العباسى أمثال بشار بن برد وأبي نواس وأبي العتاهية ، وأبى تمام والبحترى وابن المعتز وابن الرومى . ودافع عن كثرة اختياراته من المحدثين بقوله : « وقد تكررت في كتابنا تشبيهات المحدثين مثل أبى نواس وبشار ومسلم والطائى والبحترى وابن الرومى وابن المعتز وأضرابهم ؛ لأننا اعتمدنا على إثبات عيون التشبيهات المختارة والمعانى الغريبة البعيدة دون المتداولة المخلقة . والمتقدمون وإن كانوا فتحوا القول وفتحوا للمحدثين الباب ونهجوا لهم الطريق فكان لهم فضل السبق واستثثار المعانى وصعوبة الأداء فإن هؤلاء المحدثين قد أحسنوا التأمل وأصابوا التشبيه ولدنوا المعانى . وزادوا على ما نقلوه ، وأغربوا فيما أبدعوا »^(٣) .

وقد نبه إلى أنه لم يخص تشبيهات القدماء والمحدثين ، بل اختار من بينها ما رآه

(١) قام بتحقيق : الكتاب محمد معيد خان وطبع بكمبريدج سنة ١٩٥٠ .

(٢) قام بتحقيقه : الدكتور إحسان عباس وطبع بدار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٦ .

(٣) التشبيهات لابن أبي عون ص ٧٤ .

مناسبا ، وقال، إنه لو استنفد ما شَبَّهَهُ القدماء في الناقة وسائر الحيوان ، أو النساء وغيرها من الأشخاص والأشياء لطال الكتاب « وإنما قصدت إلى الاختيار مما يعتمد على السهولة والقريب دون البعيد ، والنقى اللفظ ، والمعنى الغريب ، والجيد حيث وجد قديماً وحديثاً ، والغض والنادر أين كان » .

التشبيهات من أشعار أهل الأندلس :

ويأتى الكتانى بعد ابن أبى عوف بقرن من الزمان فيؤلف هذا الكتاب فى التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ويقسم كتابه إلى ستة وستين باباً ، تبدأ بباب التشبيهات فى السماء والنجوم والقمرين وما يتصل بهما كالصبح والريح والبرق والرعد والسماء والمطر ، ثم يجىء الباب السادس فى مظاهر الطبيعة الأرضية كالربيع والزهر والورد ، وتغريد الطير فى الرياض ، ووصف الحمام ثم التشبيهات الواردة فى الآبار والمياه الجارية والأنهار ، والمياه الأواجن ، ثم فى القصور والبساتين والصحاريج والأشجار ، والناعورة والرحى ، ثم فى المأكولات من الفواكه وغيرها ، والشراب وأوصاف الخمر ، وصفة الكتوس والأقداح والسقاة والنداءى ، ثم فى القيان والمغنين ، وفى أدوات الغناء كالعود والطنبور وسائر المعازف ، ويتبعها بباب فى الشعر على اعتبار أنه الكلام الذى يتغنى به ، ثم يخصص مجموعة من الأبواب فى الحسن عامة ، فى النساء والغلمان مقسماً الحديث عن حسن الأعضاء ، كالشعر وسواده . وشقرفته ، وفى أصداغ القيان ، وعذر الغلمان والحدود والخيلاق ، وفطور العين ومرضها وغنجها ، وفى الثغر وطيب الريق وفى النهود .

وتعتبر كل تلك الأبواب فى تشبيه الأشخاص ، أو الأشياء والذوات ، يعقبها بأبواب آخر فى تشبيه الأحوال ، وخاصة أحوال الحبة ، كالحديث والعناق ، والبكاء ، وخفوق القلب وطول الليل والسهر والخيال ، والطيف والنحول ، والوقوف على الديار والربوع . . .

ثم يتحدث عن أحوال الطبيعة بعد أحوال الإنسان ، فيورد التشبيهات فى النيران والشتاء والصقيع ، والسفر وما يتصل به من قطع المفاوز ، والسراب والبحر والسفن والطرود وما يتصل به ، وذكر الحيات والحرب والخيال والسيوف والرماح والقسى

والنبال والدروع والرايات والطبول ، ووصف الطعان والضراب .
وينتقل للحديث عن الكتابة والعلم ، وأدواتهما كالدواة والقلم والصحيفة
والسكين والمذبة والمروحة والجلهم .

ويورد التشبيهات في الصفات النفسية كالجود والبخل وما إليهما ، وما جاء في
اللذات والطرف وأولها لذة الطعام في الخوان والأكل ، ثم في حديث النساء ، وما
يتصل بهجو المغنيات ، وهجو الثقلاء والكذبة ، وما يتصل بالرجال كاللحي
والطيلسان والدرهم .

ويختتم الكتاب بأبواب تتصل بعبر الحياة من فناء الناس وتقلب الدهر بهم ،
والتشبيهات في الشيب والهموم ، وذم الدنيا ، وذكر الموت ، وفي صفة الموتى
والأجداث ، ثم فيما جاء من شواذ التشبيه .

ويقول محقق الكتاب : « إن المؤلف قد حاول أن يعرض المجالات التي
اتصلت بها ملكة التصوير عند الأندلسيين سواء أخضعت لترتيب موضوعي
أو لم تخضع ، وأنه أطلعنا من خلال هذه المختارات على مبلغ ما بذله الشعر
الأندلسي من عناية بالصورة في دور مبكر من تاريخه ، حتى أصبح طلب
الصورة فيه غاية كبرى ، بل أصبح بعد زمن أكبر غاية »^(١) .

ويتفق كتاب التشبيهات للكتاني مع كتاب ابن أبي عون في بعض الوجوه وخاصة
من حيث ترتيب الكتاب ، والاشتراك في بعض الأبواب مثل باب «هجاء القيان»^(٢) .
ولكنه يختلف عنه في المنهج وفي اقتصاره على شعر الأندلسيين ، وكانت
تلك النزعة غالبية على كثير من أدباء الأندلس .

(١) الدكتور إحسان عباس في مقدمة التحقيق ص ١٦ .

(٢) جاء هجاء القيان في كتاب ابن أبي عون ص ١٢٧ ، وفي كتاب الكتاني باب في «هجو النساء

والمغنيات» ص ٢٥٧ .

صفة المخطوطة المحققة

اعتمدنا في تحقيق كتاب «غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات» على النسخة الخطية الوحيدة المحفوظة بالإسكوريال والمصورة بمعهد المخطوطات العربية .

وتبدأ النسخة بتعليقات على الصفحة الأولى بخط مغربي .

والنسخة مكتوبة بخط النسخ المنقوطة المضبوط بالشكل ، ورقمت أوراقها بأرقام إفرنجية تبدأ من رقم ١ إلى رقم ٨٤ في تسلسل غير منقطع ، فتكون عدة صفحات النسخة ثمانيا وستين ومائة صحيفة .

ومسطرها من ستة عشر إلى سبعة عشر سطرًا في الصحيفة ، وعدد كلمات السطر من ٧ إلى عشر كلمات .

ووقع بها خرم أتى على جزء كبير من الصفحات بين صفحتي ١٧٢ و ٧٢ ب في بابي الغزل والتشبيهات المختلفة ، وهما البابان الأخيران في الكتاب رقم ٥ ، ٦ . ويبدو أن بعضا من أوراق الكتاب المفقودة كانت متأكلة أو دشتًا في أثناء فهرسة الكتاب لوجود صفحة في آخر النسخة المصورة أمكن قراءة بعض كلماتها المتأكلة ، والتي تدل أنها من باب الغزل جاء فيها :

ولبعضهم في العذار

ثم يعقبها بيتين من الشعر لم يمكن قراءتهما قراءة صحيحة .

وختم الناسخ الكتاب بقوله : « بلغ مقابلته بأصله وصح بصحته » . والخط واضح لولا وجود كثير من الأخطاء النحوية والإملائية .

ويبدأ الكتاب بمقدمة ، وإهداء يهدي به علي بن ظافر كتابه إلى الملك الأفضل علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب . يقول : « وقال علي بن ظافر الأزدي ثم الخزرجي : لم أزل في كل زمان ومكان أسمع من أوصاف المآثر الملكية الأفضلية ، والمنائب النورية السلطانية . . إلخ » ويورد في الكتاب بعد الإهداء مباشرة قصيدة مديح في الأفضل يوم الأحد الموافق لخمس خلون من جمادى

الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وعسكر السلطان صلاح الدين على حصار عكا .

ويبدأ الكتاب بمقدمة أخرى يقول في أولها : « أما بعد حمد الله العزيز القهار عالم خفايا الأسرار . . . إلخ » ويختتمها بتقسيم الكتاب إلى ستة أبواب رئيسية هي :

- الأول — في تشبيه الأجرام العلوية .
- الثاني — في تشبيه المياه والأنهار .
- الثالث — في تشبيه الأنوار والأثمار والنبات .
- الرابع — في التشبيه الواقع في الحمريات .
- الخامس — في التشبيه الواقع في الغزل .
- السادس — في تشبيهات مختلفة .

وينقسم كل باب بعد ذلك إلى فصول تراوح بين خمسة وعشرة .

فالباب الأول في الأجرام العلوية وينقسم إلى عشرة فصول : في ذكر التشبيه الواقع في الهلال وفي الثريا ، وفي سائر النجوم ، وفي القمر عند انتصافه وكماه ، وفي حالاته المختلفة ، وفي وصف القمر ووصف صورته على الماء ، ثم يعدل إلى ذكر التشبيه المستحسن في ضوء الشمس على الماء ، ويعود مرة أخرى للتشبيهات في الثريا في الفصل السابع ، ثم في سائر النجوم مرة ثانية أيضا ، ويخرج إلى التشبيهات في قوس قزح والثلج والبرق والغيام في الفصل الثامن ، والفصل التاسع في تشبيه المجرة ، والعاشر في تشبيه الصبح .

ونلاحظ عدم انتظامه في الحديث عن كل موضوع يتطرق له ، إذ يكرر الحديث في الثريا والنجوم ، وفي التشبيهات الواقعة في القمر والهلال .

والباب الثاني متعلق بمظاهر الطبيعة على الأرض ، ويدور في التشبيهات الواقعة في المياه والأنهار والغدران ، وينقسم هذا الباب إلى خمسة فصول ، الأول فيما قيل في الأنهار ، والثاني في الأنهار الهادئة والغدران الساكنة ، والثالث في حركة المياه ويشمل التشبيه الواقع في تغير ماء الأنهار بالمدود ، والرابع في تشبيهات عامة متصلة بالموضوع ، والخامس في تشبيه الفوارات وما شابهها .

والباب الثالث في ثلاثة فصول تتعلق بالتشبيهات الواقعة في الأول في الأزهار ، بادئاً بالرجس ثم الورد بألوانه ، وأطال فيما أورده من التشبيهات المتصلة بالرجس كثيراً عن الورد مما يوحي بأنه يقدمه على سائر الزهور . ونلاحظ كذلك أنه ختم آخر تشبيهاته في حسن الورد بتشبيه في ذمه . ثم التشبيهات في الجلنار ، والبنفسج ، والسوسن ، والآذريون ، والحرم ، والمنثور والخيري بألوانه ، والياسمين ، والنيلوفر ، والريحان ، وشقائق النعمان ، وزهر الباقلاء ، والحماحم والأقحوان ، والبهار ، والآس .

ونلاحظ في هذا الباب اضطراباً كما هو الحال في الباب الأول ، فقد كرر القول في الشقائق وغيرها ، إذ يتحدث عن الشقائق ، ثم يخرج منها إلى القول في زهر الباقلاء ، ثم يعود للشقائق مرة أخرى ، وربما كان هذا الاضطراب راجعاً إلى الناسخ ، أو اختلاط أوراق النسخة عند ترتيبها .

ويذكر في الفصل الثاني التشبيه الواقع في الثمار كالأترج والتارنج ، والتفاح واللقاح والعنب والحوخ ، والطلع والمشمش ، والبسر ، والتمر والحمار ، والموز ، والرمان ، والسفرجل والكمثرى والتين ، والنبق ، والتوت ، واللوز الأخضر ، والبرقوق (البرقوق) .

والفصل الثالث في سائر النبات والأنقال ، كالبطيخ والعناب ، والصنوبر ، والفسق ، والجوز ، والقسطل (الكستناء) ، والقوق المصلوق ، والبادنجان ، والحشخاش ، وزهر الكتان والسلجم ، وسنابل القمح ، والبر .

والباب الرابع في الخمريات وفيه خمسة فصول ، الأول في تشبيه الكأس بعد المزج ، والثاني في الساق ، والثالث في الإبريق والكأس ، والرابع في الشراب الأسود ، والخامس في تشبيه ضوء الخمر .

والباب الخامس في التشبيه الواقع في الغزل ، والفصل الأول في الثغور والشفاه ، وبعد صفحة من بدء الباب يحدث الحرم .

ثم يدخل الحرم إلى الباب السادس في تشبيهات مختلفة ، ويبدأ الحديث في الفصل الرابع من هذا الباب في التشبيهات الواقعة في الطعام والمائدة ، وما يتصل بهما . وبعد .

والخامس فيما قيل في الرأى الطرى ، والسادس في تشبيه أنواع من المأكّل ،
والسابع في جملة من التشبيهات في أرباب الصناعات ، والثامن في الحيوانات
كالفرس والغزلان ، والزرافة والفيّل والطاووس والأوز ، وبنات وردان ، والبق
والبراغيث . والفصل التاسع في آلات الحرب كالسيف والدرع والرمح .
والعاشر في تشبيهات متنوعة ، في زامرة سوداء ، وأهرام مصر ، ودولاب الماء
وما إلى ذلك ، مما يقع تحت باب من أبوابه السابقة .

وينتهى الكتاب بأبيات ، وخاتمة نثرية يوجهها للأفضل راجياً أن يقع الكتاب
عنده موقعاً طيباً ، وأن يحزيه عليه الجزاء الحسن .

ونلاحظ أن مختارات ابن الظافر من الشعر قد غلب عليها شعر المحدثين
والمعاصرين له من شعراء مصر والشام والعراق والأندلس والمغرب . وذكر كثيراً
من شعراء اليتيمة مشاركة ومغاربة ، واستعان بما أورده الثعالبي فيها من أشعارهم ، كما
اعتمد على خريدة القصر للعماد الأصبهاني ، والرسالة المصرية لابن أبي الصلت .
واهتم اهتماماً خاصاً بالأندلسيين والمصريين والمغاربة ، وجمع مختارات من شعرائهم
لا توجد في كثير مما بين أيدينا من المصادر كمختاراته من شعر ابن رشيق
القيرواني ، وشعر ظافر الحداد المصري ، وابن قلاقس الإسكندري . بل إن
بعض مختاراته من الشعراء الذين طبعت دواوينهم لم نعثر عليها في تلك الدواوين
كبعض مختاراته من ابن الرومي وابن المعتز .

وجمع إلى هؤلاء الشعراء المذكورين مختارات من شعر جماعة من الشعراء المجهولين
الذين لم نستطع التعرف عليهم ، على كثرة ما رجعنا إليه من المراجع والمظان ،
وإن كانوا في ظننا لا يتعدون دائرة القرنين الخامس والسادس . ويغلب أنهم
لم يكونوا شعراء محترفين أصحاب دواوين ؛ إنما يقولون الشعر نظرفاً وتعلّحاً ،
في مقطوعات على البادرة من مثل ما جمعه المؤلف نفسه في كتابه الثاني :
« بدائع البدائه » .

ولم يكن ابن ظافر دائماً موفقاً في اختياراته ، بل ربما جافاه النوق أحياناً
كاختياره تشبيه ابن خفاجة في التين :

وقد سال من فه شهدهُ كما سال ريق حبيب نعس

وهى صورة منفردة للآكل كتلك الصورة التى عابها ابن رشيق فى تشبيه أحد الخالدين للخمر وما يعلوها من الحب بالزبد الذى يخرج من فم من مسه الجن . ولا يشفع لاختيار ابن ظافر هنا كون الريق ريق حبيب . وقد أورد المؤلف كثيراً من شعره فى الفصول المختلفة ، ويبدو شعره متوسط المستوى .

وبعد ؛ فإن الفائدة التى نخرج بها من الكتاب ، ومن غيره من كتب التشبيه هى كما قلنا فائدة متعددة الجوانب ، فهى تزودنا بمختارات مجهزة أو جديدة من الشعر العربى ، وهى توقفنا على صنعة الشعراء فى فن التشبيه ، وقدرتهم فى تحصيل وجوه الشبه ، وتطلعنا على أذواق العصور المختلفة فى بلاد الوطن العربى شرقية وغربية ، ومظاهر الحضارة ، وأذواق الناس ومدى تعشقهم لسمات الجمال فى الأشياء ، وفى مناظر الطبيعة ، وفى الجمال البشرى كما تقفنا على طبائعهم ، وعاداتهم وسلوكهم ، وما كانوا يستخدمون من أدوات على ما أشرنا إليه من قبل .

عملنا فى التحقيق :

لقد سرنا فى تحقيق الكتاب على أساس القراءة الصحيحة للنص على قدر الإمكان فى حدود رسوم الكتابة ، فإن استعصى قراءة لفظ لعدم وضوحه أو غرابته ، أو ضياع بعض حروفه نهتدى بالمراجع التى ربما أوردت النص من دواوين أو مجموعات شعرية ، أو مظان أخرى ، وكثيراً ما نجد خلافاً بين رواية الكتاب ورواية المراجع ، فإذا كان الخلاف راجعاً إلى خطأ لغوى ، أو تصحيف أو تحريف من الناسخ أثبتنا القراءة الصحيحة ، وإلا فلنا ثبت قراءة النص مادامت سليمة متمشية مع وزن البيت ومعناه .

ولم تكن القراءة كل حين سهلة برغم وضوح الخط ، لا شتبه الحروف وانطماسها ، ووجود خرم فى بعض الصفحات تضيق معه معالم بعض الحروف ، وربما كلمات بأكملها ، وببذل الجهد لتحصيل الكلمة الضائعة ، والتثبت من صحتها ، كذلك عانينا الجهد لتصحيح القراءة لكثرة أخطاء النسخة الإملائية واللغوية ، والتى ترجع إلى جهل النقلة .

وقد حققنا معظم الأعلام الواردة في الكتاب مع الإشارة في الهوامش إلى مصادر الترجمة لكل علم وكذلك الحال في الشعر . وفاتتنا بعض الأعلام التي لم نعر على ترجمة لها على كثرة ما بذلنا في سبيل التعرف عليها ، وفاتتنا كذلك بعض النصوص الشعرية لم نتعرف على مصادر لها ولم نعر عليها لتتم المطابقة .

وقمنا بشرح غريب الألفاظ دون المستعمل المطروق ، وحرصنا ما استطعنا على بيان معاني الأسماء الكثيرة الواردة في الكتاب للفاكهة والورود والأطعمة والأشربة والملابس والاصطلاحات الفلكية وأسماء النجوم والبروج .

وضبطنا بالشكل النصوص والأعلام ، وذلك حتى يكون الكتاب ميسور القراءة ميسور الفهم للقارئ المعاصر .

وقمنا إتماماً للقائمة بعمل فهرس تفصيلية للأعلام ، ومصطلحات الحضارة ، وأسماء الملابس والمطاعم والمشارب التي وردت بالكتاب .

لما حلفت بجاهه ستر الغفر ولما القينا صباه للبحر
 البحر واهلته الوجنه بالاسم لصراثة غفره واخر
 نصره وقد رعلوه واعلى قد فرغ نصف مباحي العمر
 وفصايدى السرير بهجه الدهر وغمر العنق النهر
 بعدمت مقامه بمثل الكتاب الذى باطن
 وبركة التهناله فيما سلق من السرير وكما اظن
 (الحق اني مع منبه فيما بعد واثبت لعلنا فلب
 فله هذه الفصيده ما وادعها نوعا من جيلين
 ما او دعت به من عجب السنه وروعتها صبه
 توجرا لا حد خمس جلوس من عجا في الاخره
 سبع ونماين وخمس ياله بالعسل المنصور على
 الجاهل سرح عكلا وبني في صله المعسكر
 طربنا بالمعسكر الشام ومبنى الجاهل الجاهل
 كان له رطل ادعى اما حكت نخامها نصن العوام
 ولا حتمه الساطع بها الخمرنا ابروت عكاس
 حكت وبني من الدفنه بالادام مثل اللالي في النظم
 نغلى لبوه ستر نبت الشقان من خارج من الجاهل

لبس حمر الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبيه
 والى على طاهر الاذنى ثم الحق خي لم
 انك كذا لو ان وما السمع من وصاق لما انزل الله
 الا فضليه والشافى التوراه السلطانيه ما خارج
 بيو المحاصير ونقنه به الحظ والحاضر وانا هذه
 من انا ما بدنى عليه الفخر ويتج من صمد
 من محض الفت فيه العاصير ناكاد اطيع الى نال
 الحضر من السورة وهم عمرة المتوفى ان يسبع
 الطوق في النطق الى ان سلك للخص الناصب
 حلال الله كما الملك وملكه الخلد وامن
 العلو واعلى له الامر لعزبه كانه من ميمان
 القل اسفها وحلبه في نفس يعقوب فصاها
 فخاله بمقامه الاسمي وادعا ورايت من وجه
 فضله الماسقه بهادح من هابت عجله بفرده
 ملى لا عن الظهور لشار وجود اخبرها لا يحل
 واردة ان يقوم بها العمل لا عمله وراح الفصيه
 وعزها لا بدعيه على صولها القمص

غرائب التنبيهات

